

## الشيخ رفاة الطهطاوي (٥)

من يظن أن «خمارة شبت» كما يسميها العوام، أو «فندق شبرد» كما يسميه المتعلمون اليوم هو الذي كان مدرسة الألسن، حيث كان الشيخ رفاة ومساعدوه وتلاميذه يخمرون الخميرة الأولى للنهضة العلمية والأدبية؟

ومن يظن وهو يمر الآن على هذا النزل أن له تاريخاً طويلاً، وأن قد تقلبت عليه أوضاع شتى فتداول عليه الجد والهزل، واحتلته الأرستقراطية والديمقراطية، وكان أحياناً حرماً آمناً لا يستطيع أن يقربه أحد، ثم كان كبرج بابل يرطن فيه بالفرنسية والإنجليزية والعربية والتركية، وتدوي في أرجائه اللغات دويّ النحل، ثم أصبح مثابة لكل أرستقراطي عابر. لقد كان بيتاً للأمير أحمد بك الدفتردار زوج الأميرة نازلي هانم كريمة محمد علي باشا، ثم مدرسة للألسن، ثم جعله محمد علي فندقاً للإنجليز، ثم صار فندقاً لمن يشاء، وهكذا الأماكن «تشقى كما تشقى الرجال وتسعد»، فهذا البهو الفسيح كان يخطر فيه الشيخ رفاة وحوله الطلبة يعرضون عليه مشاكلهم اللغوية، وأحياناً يخطب فيهم فيجلجل صوته، ثم كان يجلجل فيه صوت الجازبند، يرقص على نغماته مهفهفو الشبان، مع الفيد الحسان.

سافر الشيخ إلى الأقاليم يفتش في المكاتب عن نجباء التلاميذ يختار منهم من يصلح ليكونوا تلاميذ مدرسة الألسن، وكانت قد انتشرت هذه المكاتب في الأرياف، وأسست على نظام جديد، فيه شيء من الثقافة المدنية كالحساب وما إليه، وسميت «مكاتب الأرياف الأميرية» وبلغ عدد طلبتها خمسة عشر ألفاً، اختار «الشيخ» منهم خمسين، ولكن لوحظ أن أكثر من اختارهم من الصعيد، فهل كان هذا «محسوبة» من الشيخ وعصبية لأهل بلده وإقليمه؟ قد يكون ذلك، فالمحسوبة داء قديم، وكما يصح أن يفسر هذا التفسير

السيء يصح أن يفسر تفسيراً آخر نبيلاً، وهو أن إقبال الناس على تعليم أبنائهم كان ضعيفاً، وكثير ممن تعلموا في ذلك العصر تعلموا بالإكراه، وكان من يؤخذ ليتعلم يودع بالصياح والعويل، كما يودع من قبل في الجندبة اليوم، وقد يقبل الناس أن يتعلم أبنائهم في مكاتب بلادهم، أما أن يسافروا إلى مصر بعيدين عن أنظارهم ولا يعرفون عاقبة أمرهم، فهذا ما لا يقبلون؛ والشيخ رفاة صعيدي له في قومه جاه، وله في بلده وما حوله حسن سمعة، فالناس يطمنون أن يسلموا أولادهم له، وليس له من هذه الوجاهة في الوجه البحري ما لم في الوجه القبلي، فلعل علة كثرة الصعايدة في الدفعة الأولى من تلاميذ مدرسة الألسن، حتى إذا اطمأن الناس إلى هذه المدرسة رأينا التلاميذ من الأقاليم المختلفة لا فرق بين صعيديهم وبحريهم.

خمسون تلميذاً داخلية في مدرسة الألسن يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتعلمون على حساب الدولة، ومعهم ثلاثة مدرسين فرنسيين، ومدرسون من علماء الأزهر لتدريس اللغة العربية، ومدرسون للمواد الأخرى وعلى رأسهم الشيخ رفاة. ليس من السهل إنشاء مدرسة كهذه، فهي تسبب مشاكل لا تنتهي: طلبه من الأرياف «بعبلهم»، لم يروا إلا زرعهم وضرعهم وبيتهم المتواضع الذي تنام فيه الجاموس والبقر بجوارهم، وفيهم للتزوج وله أولاد، وفيهم من لم يبلغ الحلم، يدخلون فجأة هذا القصر المنيف، ويراد منهم أن يعيشوا عيشة نظامية نظيفة، ويجلسون أمام مسيو «بتير» يتعلمون منه الفرنسية! يا لها من معجزة! والشيخ علي الفرغلي الأنصاري يخلع حذاءه ويشمر ويتوضأ، ويخلع جبنه، ويفرشها على الأرض، ويصلي الظهر في حجرة واحدة مع مسيو «ديزون».

وأحمد عبيد الطحطاوي الطالب في المدرسة يبصق على أرض الحجرة المصنوعة من «الباركية» — عقليات مختلفة في الطلبة، وعقلية متباينة في الأساتذة، ويطلب من كل هذه العناصر المتناقضة أن تكون وحدة.

لا بأس، فالشيخ رفاة قادر على كل ذلك، وقد مر بهذه الأدوار كلها وعرف عقلياتها، فهو مستطيع مواجهتها ومعالجتها، هو ملقى العقليات المختلفة والتقاليد الاجتماعية المتباينة.

غريب أمر الشيخ في المدرسة — رزقه الله صحة جيدة لا تمل، ورزقه قلة النوم، ورزقه الطبع الفرح المرح الذي يستعذب النكتة ويضحك لها من أعماق قلبه ويشترك في صنعها، بكل ذلك يملأ جو المدرسة، هو أب رحيم لكل الطلبة، وأخ كريم لكل الأساتذة.

هو حركة دائمة لا تتقيد بميعاد ولا جرس، يحلو له أحياناً أن يعقد درساً بعد العشاء أو في ثلث الليل الأخير فيفعل والطلبة في إقبال على التحصيل، والأساتذة في إقبال على الدرس.

فإذا نال الطلبة قسطاً لا بأس به من الفرنسية والعربية مرنهم على الترجمة، ولكن لا يمرنهم بموضوعات تكتب في كراساتهم ثم تطرح، بل في كتب نافعة يترجمون منها ما استطاعوا، فإذا وقفوا في فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها رجعوا إلى الشيخ فساعدهم، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لغتهم، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي، فقد كان ساعده الأيمن في هذه المدرسة بفضل ما منح من قدرة على التدريس بلغة سهلة، وعبارة فصيحة وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون. فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع، فتكون أثراً خالدًا.

فأنت يا أبا السعود أفندي ترجم لنا هذا الكتاب وسَمِّهِ «نظم اللاكلى في السلوك، فيمن حكم فرنسا من الملوك»؛ وأنت يا خليفة أفندي محمود ترجم لنا «إتحاف ملوك الزمان في تاريخ شارلكان»، فإذا فرغت منه فترجم «المشرق في المنطق»؛ وأنت يا محمد أفندي مصطفى البيّاع ترجم لنا «مطالع الشمس في وقائع كرلوس» ملك السويد؛ وأنت يا أحمد أفندي عبيد ترجم لنا «الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر» وهكذا.

واسمعوا ما يقوله هذا الأخير في كتابه؛ لأنه يدل على منهج العمل: «كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن، المؤيد برعاية الملك المبدى، السيد رفاعة أفندي، فأجاد تربيتي كغيري، حتى حسن حالي وسيري، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنساوية والعربية ... فبعد أن رأى في التعليم حسن حالي، واجتهادي في نيل المعالي بين أمثالي، اقتضى رأيه المؤيد، وحزمه المعضد، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ، فاخترت ملكاً من ملوك الإفرنج تعلقو همته على المريخ، وهو تاريخ بطرس الأكبر، الذي فضله أشهر من أن يذكر، لمؤلفه الشهير المسمى فولتير، الذي يعد بين أكابرهم أعظم حجة، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة، فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال، وأتم منوال، وقد شرعت في نقله من الفرنساوية إلى العربية، مع إعانتته لي في حل مشكلاته، وما عسر عليّ من غوامضه ومعضلاته ... وقد صرفت في ترجمته على صعوبته الهمة، وسهرت في مطالعته وفهمه الليالي المدلهمة ... مع ما يضاف إلى ذلك من كون هذا التاريخ معدوداً من التواريخ السياسية المشحونة بالوقائع والحوادث البوليتيفية، ومؤلفه من كبار المتفلسفين من

العيسوية، ومن عظماء فصحاء الدولة الفرنساوية، ولا أقول مع ذلك إنه خلى من الخل، أو عَرِيَّ من الخطل، فإن ذلك ليس في طاقة الإنسان، الجامع في اشتقاقه حروف النسيان. وبعد سنوات تخرجت هذه الدفعة الأولى، فشهدت مصر منها نموذجًا لم تشهده من قبل، شباب متعلم لغة عربية ولغة أجنبية، ومثقف ثقافة أدبية — جغرافية وتاريخية. وكل ذلك تَعَلَّمه في مصر لا في أوروبا، ولذلك تلقفتهم المصالح المختلفة التي تحتاج إلى هذا النمط من الموظفين، فكننت ترى — فيما بعد — هؤلاء المتخرجين في الدفعة الأولى، يشغلون مناصب هامة مختلفة، هذا عبد الله افتدى أبو السعود أكبر رجال الترجمة في مصر، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم، وهذا محمد أفندي عبد الرازق كاتب سر الحضرة الخديوية، وهذا شحاته عيسى أفندي قد تخصص بعد في العلوم الرياضية والحربية، وكان ناظر مدرسة أركان حرب، وهذا أحمد عبيد أفندي وكيل مجلس التجار بالمحروسة، وهذا حسن فهمي أفندي وكيل السكك الحديدية بالأقطار الصعيدية، وهذا السيد عثمان الدويني القاضي، وهذا مصطفى رضوان مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب، الخ الخ، ولو رأيتهم يوم دخلوا المدرسة بجلابيبهم وسذاجتهم ورأيتهم يوم تخرجوا بعد سنوات قلائل، لأخذ منك العجب كل مأخذ، وهتفت بحياة «الشيخ رفاعة». وقد استفاد هو نفسه من هذه التجربة الأولى، فأخذ يصلح الأخطاء ويوسع الاختصاص وينوع العمل.

فألحقت بمدرسة الألسن مدرسة تجهيزية تعد الطلبة للدخول بها بدل أبناء المكاتب، وأدخلت اللغة الإنجليزية ضمن اللغات التي تدرس فيها، وتوسع في قبول الطلبة حتى بلغ من فيها مائة وخمسين طالبًا، وأنشئت بالمدرسة فروع مختلفة، مدرسة فقه وشريعة إسلامية يدرس بها القانون الفرنساوي والفقه الإسلامي، ومدرسة محاسبة ومدرسة إدارة أجنبية، وكل هذه المدارس يسومها ويديرها الشيخ رفاعة، ويحل فيها المصريين أساتذة محل الأوروبيين.

سبع عشرة سنة يعمل في هذه المدارس، كالحلقة لا يَمَلُّ، فأمر إدارية، وقيام بترجمة كتب، وإشراف على ما يترجمه غيره، وفي كل حين يُضم إليه عمل آخر جديد، فيعهد إليه الإشراف على جريدة الوقائع المصرية، والكتبخانة الإفرنجية، ومخزن عموم المدارس، ويفتش على المدارس، ويشرف على الامتحانات العامة في آخر السنة، ويحبر الخطب تخطب فيها، حتى كَوَّنَ جيلًا جديدًا هو — من غير شك — أثر مجهوده ونتيجة إخلاصه، وتغير وجه مصر من الناحية العلمية والأدبية، فجعله ما ألفه وترجمه هو

وتلاميذه بين مطبوع وغير مطبوع، نحو ألفي كتاب، هي خميرة نهضتنا، وعماد ثقافتنا. يدين له رجال الأدب بما كَوَّن لهم من أمثال إبراهيم بك مرزوق الناظم الناثر المشهور، ومحمد عثمان جلال، صاحب العيون اليواقظ ومترجم قصص لافونتتين، وقبول وورد جنة الخ، وصالح مجدي؛ ويدين له رجال القانون بما أخرج لهم من أمثال قدري باشا مقنن الشريعة الإسلامية بكتبه الأحوال الشخصية، وقانون العدل والإنصاف، ومرشد الحيران؛ ويدين له الرياضيون بأمثال محمد بك الشيمي وتأليفه في الحساب والهندسة، إلى ما لا يحصى من رجال الفكر في كل فرع من فروع العلم.

زهت له الدنيا، فهو ناجح في عمله، والولاية مقبلون عليه مقدرون لجهده، والمنح تتوالى عليه، فكلما تقدم تلاميذه ومنحوا ألقابًا لم يرض أوامراً إلا أن يمنحوه ألقاباً أعلى منهم، حتى تقدم مرة بجزء آخر من ترجمة كتاب ملطبرون إلى محمد علي باشا فمنحه رتبة ميرالاي ورفع مرتبه إلى ١٣٠٠٠ قرش صاغ في الشهر، ومنحه ٢٥٠ فداناً في بلده طهطا إحساناً بإحسان.

ولكن الدنيا لا تدوم على حال، والعيش — أبداً — حلو ومر، «والدهر ذو غلطة حيناً وذو لين»؛ فهذا عباس باشا الأول يأتي فيقف حركة التعليم ويبطل المصانع والمعامل، رغبة — فيما زعم — في الاقتصاد، ولم يُبق للتعليم إلا مدارس قليلة جداً، وكان فيما ألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاة، وإذ كان الشيخ أكبر منبع للتعليم، كان أحق الناس بالمقت، وإذ كان أحب شيء إلى الشيخ العلم والتعليم، فأبغض الناس إليه من يلغي العلم والتعليم. وجاء رجال السوء الذين يزينون للرؤساء كل ما يهونون، ويخترعون المنطق لكل ما يرغبون، فإذا قالوا أسود، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أسود، وإذا قالوا أبيض، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أبيض، وإذا قالوا أسود أبيض لم يعدوا ألف دليل آخر على أنه أسود أبيض. كالذي يروي أن طاهياً سأل سيده يوماً:

ماذا نطبخ اليوم؟

**السيد:** والله لا أدري، أنطبخ باذنجاناً؟

**الطاهي:** الله! نعم ما ذكرت، إنه لذيذ الطعم، مفيد للجسم.

**السيد:** ولكنه يتعب معدتي.

**الطاهي:** صدقت، ما أثقله، وما أعسر هضمه، وما أقل فائدته.

**السيد:** يا رجل! إنك من لحظة تمدحه وتقر بفائدته!

**الطاهي:** اسمع يا سيدي، أنا خادمك أو خادم البانجان!

كذلك شم هؤلاء رغبة الوالي في إقفال المدارس، فاستطاعوا أن يجدوا ألف دليل على ضرر العلم وضرر التعليم، وطعنوا في الشيخ رفاة بأنه قليل الفائدة، عقيم الطريقة. فإذا الأمر يصدر بنفيه إلى الخرطوم تحت ستار غشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظرها ومعه طائفة من المغضوب عليهم ولا الضالين. ولم يكن الأمر أمر اختيار كما هو شأننا اليوم، نقبل الوظيفة أو نرفضها، إنما الأمر أمر جزم يقبل الوظيفة، أو ينفى إلى أسوأ من الخرطوم بلا وظيفة.

الشيخ في الخرطوم بعد باريس، ولم تكن الخرطوم كما نعهد اليوم، نظافة شوارع، وجمال مساكن، ومدنية وأبهة، إنما كانت مدينة صغيرة لا عناية فيها بالصحة، ولا وسائل متوفرة للعيش، وهو ناظر مدرسة ابتدائية في السودان بعد أن كان ناظر التعليم كله في مصر، وكل يوم يتخطف الموت أحد معاونيه، حتى لم يبق إلا نصفهم أو أقل، والشيخ يستغيث ولا مغيث، فيشفي غليله في قصائد الاستغاثة، يستغيث أولاً بالأمرء، فإذا فشل استغاث بالأولياء والأنبياء، ها هو يستغيث — أولاً بحسن باشا كتحدا مصر بقصيدة في ستة وثمانين بيتاً، يصف فيها الوشاة فيقول:

وهل في حربهم يكبو جوادي؟  
على تزييفه نادى المنادي  
بمصر، فما النتيجة من بعادي؟  
الأعمال ثم يجازى مثل هذا الجزاء  
تفي بفنون سلم أو جهاد  
ومنتسكو يقر بلا تمادي  
قد اقترحوا سقاية كل صادي  
بقاهرة المعز على عمادي

مهازيل الفضائل خادعوني  
وزُخرف قولهم إذ موهوه  
قياس مدارسي — قالوا — عقيم  
ويجب كيف يقوم لمصر بمثل هذه  
على عدد التواتر مُعرباتي  
وملُطبرونُ يشهدُ وهو عدل  
ومغترفو قراح فراتِ درسي  
ولاح لسان باريس كشمس

\*\*\*

الشيخ رفاعة الطهطاوي (٥)

رحلت بصفقة المغبون عنها  
وما السودان قط مقام مثلي  
وفضلي في سواها في المزاد  
ولا سَلَمَي فيه ولا سعادي

ويحز في نفسه فرقة أولاده:

وقد فارقتُ أطفالاً صغاراً  
أفكر فيهموا سرّاً وجهرّاً  
بطهطا دون عُودي واعتيادي  
ولا سَمري يطيب ولا رقادي  
مواصلتي ويطمع في عنادي  
أريد وصالهم والدهر يأبى

وكان الشيخ ماكرًا حقًا، فقد وضع القصيدة على وزن وقافية:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً  
ولكن لا حياة لمن تنادي

فلما لم يُجِدْه ذلك أخذ يخبس قصيدة لسيدي عبد الرحيم البرعي في مدح النبي  
مطلعها:

خلّ الغرام لصبّ دمعهُ دمه  
حيران توجّده الذكرى وتُعدمه

يقول فيها:

«رفاعة» يشتكي من عصبية سخرت  
فأرفع ظُلامة نفس عدلك ادخرت  
لما رأّت أبحر العرفان قد زخرت  
وهاك جوهر أبياتٍ بك افتخرت  
جاءت إليك بخط الذنب ترقمه

أربع سنوات في السودان كانت عليه كِسْنى يوسف، ومع هذا يترجم فيها قصة  
«تليماك»، ويعلم في مدرسته بعض أبناء السودان وأبناء الموظفين من للمصريين، وكانت  
مدرسته نواة لما أنشئ بعد من مدارس، ولم ينقذه من نكبته إلا موت عباس وتولي  
سعيد.